من صاحبك

أبو الحسن بن محمد الفقيه

مصدر هذه المادة :

دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد للـــــه، نحمـــــده، ونســــتعينه ونســتغفره ونعــوذ بالله من شــرور أنفســنا ومن ســـيئات أعمالنـــا، من يهـــده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي لــه، وأشــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشــهد أن محمدًا عبده ورسوله..

حينما نتحــدث عن الصــحبة وآثارها على النفس ســلبًا وإيجابًــا.. فنحن نتحــدث في الحقيقة عن شــكل من أشــكال العلاقــات الاجتماعية التي تحكمها قوانين الحياة..

والإســـلام كلمة الفصل.. في تحديد منهج الصــحبة الناجحة الــتي يــرجى منها الخـــير ويســـتبعد فيها الشـــر.. فلو تأمل المســلم مليًا في النصــوص الــتي تنــاولت معــايير الخلة الصــالحة، والصــحبة الخالصة والأخـــوة الرفيعـــة.. لوجد فيها من الآيـــات والعبر ومن الحكمة والرحمة ما يشكل منها منهجًا متكـــاملاً يشـــكل لبنة أساســـية في العلاقات الاجتماعية..

فالإســــلام كما نظم العلاقة بين الزوجة وزوجها.. وبين الوالــدة وولــدها.. وبين الأب

وأولاده وبين الحاكم والمحكـوم وغيرها من نظم الحيــاة الاجتماعيــة؛ فقد نظم أيضًــا العلاقة بين المســـــلم والمســـــلمة.. بل المسلم والذمي.. وجعل منها منهجًا واضحة معالمه بحسب الحال والمقام..

فكيف نظم الإسلام العلاقة بين المســلم والمســـلمة.. وما هي معـــايير الأخـــوة والصداقة؟ وهل يتأثر الصاحب بصاحبه؟

أخي الكـريم: إذا كنت تحمل للصـداقة هومًا.. وترجو خيرها.. فأنت إن شاء الله.. تقرأ الكتاب المناسب لذلك.

وفقك الله لما تحبه وترضاه.

أبو الحسن بن محمد الفقيه.

* * * *

هل حقًا: الصاحب ساحب؟!

أخي المسلم: كثيرًا ما نسمع الأشــعار والأمثـال عن الصـحبة وتأثيراتهـا: الصـاحب ساحب.. الرفيق قبل الطريـق.. قل لي من تصـــــــاحب أقل لك من أنت..! وغيرها من الأمثـال الــتي تعد عصــارة تجربة هامة في الحياة..

ويقف النـــاس من هـــذه القواعد المبنية على التجارب مواقف:

فموقـــف: يؤيـــدها ويـــدعمها, وموقـــف: يشـــكك في إطلاقهـــا, وموقـــف: يعارضـــها ويكذبها.. ويرى أن الإنسان لا يمكن أن يؤثر فيه أحد ســـوى نفســـه.. فهو ســـيدها.. وهو أولاً وآخرًا صاحب القرار.

بينما نجد الإسلام قد أصل لهـــذه القواعد أصـــولها.. وتنـــاول قضـــية الصـــحبة بتحليل مســـتفيض اخـــتزن من فيضه تلك القواعد في أحسن ســــــياق وأجل مثـــــال, تفهمه الخاصة والعامة.. ويفهمه العربي من لغته..

فعن أبي موسى الأشـــعري قـــال: قـــال رســـــــــول الله : «**إنما مثل الجليس**

الصـــالح والجليس الســـوء كحامل المسك ونافخ الكـير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتـاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكـير! إما أن يحرقُ ثيابـك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة» [رواه البخـــاري ومســـلم واللفظ له].

فـــالجليس هو الصـــاحب.. وهو إما أن يكون صالحًا فيتعدى صلاحه إلى من حوله..

وإما أن يكون غـير ذلك فيتعـدى فسـاده من حوله.. فتأثيره في كل الأحوال حاصل.

وهـــذا التـــأثير المـــذكور للجليس على جليسـه.. يقـره علم الاجتمـاع المبـنى على دقة الملاحظة ودراسة التجـارب والوقـائع.. وربط ذلك بممـــيزات الإنســـان باعتبـــاره ظـــاهرة في الوجـــود.. محكومة بـــالقوانين كغيرها من ظـــواهر الحيـــاة.. فالإنســـان له ميزتان تحكمان علاقاته الاجتماعية:

الأولى: هي ميلـه للأنس، وتطبعـه بـه.. ولهـذا يعـزو أغلب اللغـويين اشـتقاق اسـم «الإنسان» من الأنس.. والأكـثر على أن الصحيح في بيت الشعر المشهور هو:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب

فالصــحيح لأنســه.. وليس لنســيه, وقد تكلم عنه ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد» بإطناب.

الثانيـة: أنه قابل للتغـير وصـفاته قابلة للتبــديل.. باعتبــاره متمــيزًا بالقــدرة على التفكـــير ومعنــــاه ربط وفك ما يعقله من الأشــياء.. وتفكــيره هو ما يؤهله للاقتنــاع بالسماع والمحاورة والملاحظة واللمس.

وكونه مقتنعًا بفكرة ما في لحظة.. فلأنه يــرى الربط بين مكوناتها صـحيحًا, فلو اقنع عن طريق الملاحظـــة.. أو الســـماع بربط آخــر.. أو فك آخــر.. لتغــيرت في الحــال فكرته.. ولتغيرت بتغيرها صفته..؟

و**هاتان الميزتان:** الأنس والتغير.. هما ما يجعلان – الإنســان – أي إنســان، متــأثرًا بصــــاحبه.. إذ هو باتصــــافه بحب الأنس لا يســتغني عن الرفيــق، ولكونه مهيأ للاقتنــاع بالملاحظة والسماع.. لا ينجو من التأثر بمن يرافق.

ومن هـذا كلـه.. كـان الصـاحب سـاحبًا..

أي: مؤثرًا على رفيقه بخصال.. ومسـتفرغًا منه خصالاً أخرى.. سواء شر أو خير.

ولهـذا جـاء الحـديث صـريحًا في دعـوة المسـلم إلى النظـر بعين التأمـل والتحقـق من الصـاحب والخليـل فقـال : **«المـرء على دين خليله، فلينظـر أحـدكم من يخالل»** [رواه أبو داود وهـو في السلسـلة الصحيحة برقم (927)].

ابل الرجال إذا وتوسمن أمورهم
فإذا رأيت أخا فبه اليدين قرير

قـال مالك رحمه اللـه: «النـاس أشـكال كأشـكال الطـير، الحمـام مع الحمـام، والغـراب مع الغـراب، والبط مع البـط، والصعو مع الصعو، وكل إنسان مع شـكله» [روضة العقلاء لابن حبان ص109].

وقـال ابن حـزم رحمه اللـه: «من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكـرم صـديق من أهل المواساة والبر، والصـدق، وكـرم العشـرة، والصبر، والوفاء، والأمانـة، والحلم، وصـفاء الضمير، وصحة المودة».

وهل ما يعانيه الشـباب من همـوم

المعاصي.. ومشكلات المخالفات إلا بسبب رفقة السوء التي تزين المنكر وتدل عليه، وتستسهل الخطر وتهدي إليه، وتظل تفتن بأفعالهن وأحوالها من وقع في شراكها حتى ترديه قتيلاً في مصارع البلايا.

فكم من شاب بريء تخبطت به قدماه.. فلم يجد من يصحح له مفهومه للصحبة.. ولم يجد من يحاسبه على سوء الرفقة.. فسار خبط عشواء يعاشر من هب ودب من الشباب.. مستأنسًا بالحكايات.. ومستمتعًا بالدعابة والمرح..

حتى إذا جنَّ الظلام واختلط

جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب

فبلوه بسموم التدخين.. ومجون السهر.. ودسوا المخدرات في السوائل.. باسم المنشطات.. ودلوه على سبل المعاكسات.. ومهدوا له الطريق لاستسهال المخالفات.. وحركوا فيه الشهوة.. وأعانوا عليه الشيطان.. حتى إذا استمرأ تلك المعاصي.. واستلذ مذاقها.. ابتلي بها البلاء العظيم.. وتفنن في ارتكابها.. وصار رفيق

سوء لغيره من الأبريـاء.. وهكـذا.. الواحـد.. تلو الآخـــر.. فالسلســـلة لم تنته بعـــد.. وســـتبقى ما بقي لرفقة الســـوء نبتة في الحياة!

وإذا تـــأملت في منشأ الخطـــر.. وجدته سوء أو انعدام النظر.

ولو نظـر كل خليـل في خليلـه.. وكـل رقيــق في رفيقــه.. لجنب نفســه خبث الأنفاس.. ولصلح دينه وأزهرت دنياه..

عن المرء لا تسأل وسل عن
فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب
ولا تصحب الأردى فتردى مع

جليس حامل المسك

أخي المســلم: إذا كــان من يجــالس السفهاء لا يسلم من سفههم.. إن احتــاط.. وتحرز.. وزعم أنه حـازم؛ فـإن من يجـالس الأخيار لا يعدم من الخير.

فــالمؤمن كالنخلــة.. في نفعها وخيرهــا.. ومن جالسه انتفع بـــــــه.. تمامًا كما ينتفع بخــيرات النخــل.. ولــذلك قــال ﷺ: **«مثل**

المـؤمن مثل النخلـة، ما أخـذت منها من شيء نفعلك».

ولـذلك كـان الظفر بـالجليس الصـالح والمـؤمن الـوفي.. نهاية الظفـر؛ لأنه من أعظم العون على أمور الدين والدنيا.. ومن أهم أسـباب السـعادة والانشـراح.. فـالخير الـذي يصـيبه العبد من جليسه الصـالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفـر، فإنـه؛ إمَّا أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهـدي لك نصـيحة، أو يحـذرك من الإقامة على ما يضـرك، فيحثك على طاعة الله وبر الوالدين، وصـلة الأرحـام، ويبصـرك بعيـوب نفسـك، ويـدعوك إلى مكـارم الأخلاق ومحاسـنها، بقوله وفعله وحالـه، فـإن الإنسـان مجبـول على الاقتـداء بصـاحبه وجليسـه.. وأقل ما تسـتفيده من الجليس الصـالح أن تنكف بسـببه عن السـيئات والمعاصـي، رعاية للصـحبة، ومنافسة في الخـير، وترفعًا عن الشـر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حـال حياتك وبعد مماتـك، وأن يـدافع عنك بسـبب اتصـاله بك ومحبته لـك، وتلك

أمـــور لا تباشر أنت مـــدافعتها كما أنه قد يصــلك بأشـخاص وأعمـال ينفعك اتصـالك بهم» [بهجة قلـــــوب الأبـــــرار للعلامة السعدي].

فالجليس الصـالح هو مفتـاح من مفـاتيح الخير الـذي أشـار إليه قـول رسـول الله ﷺ: **«إن من النـاس ناسًـا مفـاتيح للخـير مغـاليق للشر»** [رواه ابن ماجه وحسـنه الألباني في السلسلة الصحيحة 1332].

وتأمل أخي الكـــريم في هـــذه القصة الطريقة كيف كان فيها صاحب صالح مفتاح خير على صاحبه:

قال «مخول»: جاءني «بهيم» يومًا فقال لي: تعلم لي رجلاً من جيرانك أو إخوانك يريد الحج ترضاه يرافقني.

قلت: نعم.

فـــذهبت إلى رجل من الحي له صـــلاح ودين.. فجمعت بينهمـــــــا.. وتواطآ على المرافقة ثم انطلق بهيم إلى أهلـــه، فلما بعُـدَ أتـاني الرجل فقـال: يا هـذا, أحب أن تزوي عنِّي صاحبك وتطلب رفيقًا غيري.

فقلت: ويحــك! فلم؟ فوالله ما أعلم في

الكوفة له نظـــــــــــيرًا في حسن الخلق والاحتمال، ولقد ركبت معه البحر فلم أرَ إلا خيرًا.

قال: ويحك! حُـدِّثتُ أنه طويل البكـاء! لا يكاد يفـتر، فهـذا ينغص علينا العيش سـفرنا كله.

قــال: ويحــك! حــدثت أنه طويل البكــاء أحيانًا عند التـــذكرة! يـــرق القلبُ فيبكي الرجل أو ما تبيكي أحيانًا؟!

قـــــال: بلى، ولكنه قد بلغـــني عنه أمر عظيم جدًا من كثرة بكائه.

قال: قلت: اصحبه، فعلك أن تنتفع به!

قال: أستخير الله!

فلما كان اليـوم الـذي أراد أن يخرجا فيه جيء بالإبل وطيء لهمــــا، فجلس «بهيم» في ظل حائـــط، فوضع يــــده تحت لحيته وجعلت دموعه تســـيل على خديه ثم على لحيتـــه، ثم على صـــدره، حـــتى والله رأيت دموعه على الأرض.

قـال: فقـال لي صـاحبي: يا مخـول: قد ابتدأ صاحبك.. ليس هذا لي برفيق.

قــــــــال: قلت: ارفق لعله ذكر عياله

ومفارقته إياهم فرّقًّ.

وسـمعها بهيم فقـال: والله يا أخي ما هو ذاك، وما هو إلا أني ذكـــرت بها الرحلة إلى الآخرة..

قال: وعلا صوته بالنحيب.

قـــال لي صـــاحبي: والله ما هي بـــأول عـــــدواتك لي أو بغضك إيـــــاي! أنا ما لي ولبهيم! إنما كــان ينبغي أن ترافق بين بهيم وبين داود بن علبـة، وداود الطـائي، وسـلام بن أبي الأحـوص! حـتى يبكي بعضـهم على بعض، حتى يشتفوا أو يموتوا جميعًا.

قـــال: فلم أزل أرفق به وقلت: ويحـــك! لعلها خير سفرة سافرتها!

قال: وكان رجلاً صالحًا، إلا أنه كان رجلاً تـــاجرًا موســـرًا مقبلاً على شـــأنه، لم يكن صاحب حزن ولا بكاء.

قـال: فقـال لي: قد وقعت مـرتي هـذه، ولعلها تكون خيرًا.

قال: وكل هذا الكلام لا يعلم به بهيم ولو علم بشيء منه ما صحبه.

قال: فخرجا جميعًا، حتى حجا ورجعـا، ما يرى كل واحد منهما أن له أخًا غير صاحبه.

فلما جئت اسلِّم على جاري قال: جــزاك الله يا أخي عني خيرًا، ما ظننتُ أن في هذا الخلق مثل أبي بكــر، كــان -واللــه- يتفضل عليَّ في النفقــة، وهو معــدم وأنا موســر، ويتفضل علي في الخدمة، وأنا شـاب قـوي وهو شـــيخ ضـــعيف، ويطبخ لي وأنا مفطر وهو صائم.

قال: قلت: فكيف كان أمـرك معه الـذي كنت تكرهه من طول بكائه؟

قال: ألفتُ والله ذلك البكاء، وسُرَّ قلــبي حتى كنت أساعده عليه، حتى تـأذى بنا أهل الرفقة.

قــال: ثم والله ألفــوا ذلــك، فجعلــوا إذا ســمعونا نبكي بكَـوْا، وجعل بعضـهم يقــول لبعض:

ما الذي جعلهم أولى بالبكاء منا والمصير واحد؟!

قال: ثم خرجت من عنده، فـأتيت بهيمًـا، فسلمت عليه.

فقلت: كيف رأيت صاحبك؟

قال: كخـير صـاحب، كثـير الـذكر، طويل التلاوة للقــرآن، ســريع الدمعــة، محتملاً

لهفوات الرفيق، فجزاك الله خيرًا».

فتأمل أخي كيف صــار التــاجر المقتصد سابقًا بـالخيرات, وكيف صـحب عابـدًا بكـاءً رقيق القلب

فعـــاد من ســـفره وهو على دينه وخلقه ورقته.

وكان الإمام أحمد رحمه الله إذا بلغه عن شـخص صـلاح أو زهد أو قيـام حق أو اتبـاع للأمر: سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله.

وكـان رحمه الله يـدقق في اختيـار من يقربه منه ويدنيه وعرف عنه ذلك.

حتى قال فيه الشاعر:

ويحسن في ذات الإله إذا
مضيمًا لأهل الحق لا يسأم
وإخوانه الأدنون: كل موفق
يصير بأمر الله يسمو إلى

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ‌ؓ:

«ما أعطي عبد بعد الإسلام خـيرًا من أخ صــــالح، فــــإذا رأى أحــــدكم ودًا من أخيه فليستمسك به».

وصـــلى الله وســـلم على نبينا محمـــد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * * *